الكتاب العاشر

الأزمة الفكرية المعاصرة تشخيص ومقترحات علاج

تأليف أ.د. طه جابر العلواني

تحليل: أ.د. مصطفى رجب

يُرْجِع الدكتور العلواني - في هذا المؤلَّف - جذور الأزمة الفكرية المعاصرة إلى أواسط القرن الثامن عشر الميلادي، حين بدأ الفكر الغربي يتفوق بصورة كبيرة على الفكر الإسلامي، وبدا أن العالم الإسلامي المترهل يقف عاجزًا منذ تلك الفترة وحتى الآن أمام تقدم وغزو الفكر الغربي والمنهج الغربي والثقافة الغربية والعلم الغربي، فمنذ أن بدأ الغربيون ينشئون مدارسهم داخل الكنائس في المدن الإسلامية الكبيرة، والفكر الإسلامي والثقافة الإسلامية تتقهقر وتضمحل أمام هذا الغزو.

حتى العلوم الأصولية والشرعية لم تسلم من التغيير نتيجة التأثير الأوروبي، وخضعت جميعها للتطور الغربي والطرائق الغربية في توصيل المعرفة وبناء فلسفتها ومعالجة قضاياها وبذلك أوشكت الشخصية الإسلامية على الاختفاء.

وقد توقف الدكتور العلواني أمام قضيتين أساسيتين في هذا السياق:

القضية الأولى: قضية الغزو الثقافي:

فهو يرى أن هناك فريقين من المثقفين: فريقا ينكر وقوع هذا الغزو، ويتهم الذين يقولون به بأنهم ضد حضارة العصر، ويقولون أن عامل الحواجز الجغرافية والحدود السياسية والقومية قد اندحر وتقهقر أمام ثورة الاتصال والمواصلات في عصرنا الذي نعيشه، وانتقلت ثقافة الشعوب إلى الشعوب الأخرى كالهواء، الأمر الذي لا تستطيع أي حضارة الانغلاق أو الاحتماء من ثقافات وحضارات لا تريدها، يعني هذا كله أن كلمة غزو تصبح لا معنى لها وغير صحيحة عند هؤلاء.

أما الفريق الثاني: فيقول بهذا الغزو ويقرُّه، ويعتقد أن الثقافات والأفكار مثل الجيوش يمكن الاستسلام أمامها أو حصارها في حدودها الإقليمية، فإن حدث وتعدت هذه الأفكار وتلك الثقافات حدودها أصبح تمددها عدوانًا وغزوًا تجب مقاومته.

ويرى الدكتور العلواني أن تعاملنا مع الفكر والثقافة والمعرفة الغربية قد مر بثلاث مراحل هي:

المرحلة الأولى:

الانبهار المباشر مع الصدمة الأولى التي فقد المسلمون فيها ثقتهم بفكرهم الإسلامي وخيل إليهم أن فكرهم الإسلامي متخلف ورجعي، ولا يستطيع بناء حضارة، وأصبح الإنسان المسلم منهزمًا نفسيًا، ومهيأ لاستقبال البديل الغربي، وفي الوقت نفسه بدأت البعثات التعليمية للطلاب المسلمين تجوب البلاد الغربية، وبدأ أبناء المسلمين يذهبون إلى الجامعات والمعاهد الغربية ليأخذوا من الغرب الثقافة والفكر والعلم، ويعودون إلى بلادهم أناسًا آخرين، ومن هنا بدأت المؤسسات العلمية في بلادنا تؤسس على النمط الغربي، ليس في بنائها فقط، بل في مناهجها وبرامجها ووسائلها والنتيجة قبول المسلم الملتزم أن الإسلام لا ينافي العلم ولا يناقض الحضارة ولا نستطيع أن نلوم الشيخ محمد عبده وجمال الدين الأفغاني إذا نظرنا نظرة فاحصة لفترة وجودهما. وهما اللذان أعلنا وبقوة أن الإسلام صالح لكل زمان ومكان.

المرحلة الثانية:

وهي فترة الاستقرار والمراجعة في نفس الوقت، بعد أن أفاق المسلمون من انبهارهم وبدأوا يفكرون ويراجعون مواقفهم، ويبحثون عن نقطة التقاء بين الفكر الغربي والإسلام، بدوافع مختلفة بعضها لتحقيق أهداف غربية وبعضها لدوافع

إسلامية خالصة، وبدأت مؤلفات هؤلاء تظهر مواجهة مع الفكر الغربي وكان الهدف من هذه المرحلة أن نقول إن لدينا ما لدى الغرب.

المرحلة الثالثة:

وهي المرحلة التي استيقظ فيها المسلمون، وازداد وعيهم بأزماتهم، وبدأوا يبحثون عن ذاتهم ويؤكدون على خصائص التصور الإسلامي ومزاياه وتفوقه ثقافة وعقيدة وعلمًا ونظامًا ومنهج حياة.

وهنا بدأ تحدّ من نوع جديد: فإما أن يثبت المسلمون أن الإسلام قادر على استئناف حياة إسلامية، وتقديم بدائل إسلامية خالصة، وإما أن تبدأ الأمة مرحلة جديدة من التيه والتخبط.

حاجتنا إلى الفكر:

ويرى الدكتور العلواني أن علينا الآن أن نقدم للعالم فكرًا سياسيًا إسلاميًا، وفكرًا اقتصاديًا يكون بديلًا جادًا للأفكار الاقتصادية الغربية، بل علينا أيضا أن نقدم أفكارًا اجتماعية وتشريعية وتربوية وإنسانية، وفلسفية ومنهجية وثقافية إسلامية، على أن تكون هذه البدائل ناجحة متفوقة، وذلك كله من خلال مؤسسات ونظم ووسائل تجسد تلك الأفكار وتقوم عليها الحضارة الإسلامية في صورتها المتطورة على أسس إسلامية ثابتة.

والذي يؤكد عليه المؤلف كثيرًا في هذا القسم من كتابه أنه من الواجب أن تستعيد الأمة شخصيتها الثقافية المميزة وعقليتها الإسلامية ونفسيتها المطمئنة حتى يكون هناك أمل في نهضة حقيقية أو بناء حضاري.

ومعنى الفكر وحقيقته في اللغة يشير إلى التأمل والتروي وإعمال العقل، فقد وردت هذه الكلمة (مادة فكر: ف.ك.ر.) في القرآن الكريم في عشرين موضعًا بصيغة الماضي أو المضارع مثل: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾ [المدثر:١٨] ﴿لَعَلَّهُمْ

يَتَفَكَّرُونَ ﴾[الأعراف:١٧٦] ﴿ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الأنعام:٥٠] وهي تدل على حدث وذات وكأن الله سبحانه يريد أن يقول لنا أنه لا يمكن أن يتجرد الفكر من المفكر، وينبغي أن يبنى على هذا الفكر منهج الحياة.

هذا هو معنى الفكر في اللغة، كما حلله المؤلف أما الفكر اصطلاحًا عنده فهو اسم لعملية تردد القوى العاقلة المفكرة في الإنسان، سواء أكان قلبًا أم روحًا أم ذهنًا بالنظر والتدبر، لطلب المعاني المجهولة من الأمور المعلومة، أو الوصول إلى الأحكام أو النسب بين الأشياء.

منهجية الفكر:

ويرى الدكتور العلواني أننا لكي نقدم فكرنا للناس ولأنفسنا فلابد أن نحدد معالمه ومنهجه وهذا جانب مهم، وهناك جانب آخر لابد منه وهو أن هناك قضايا ومعضلات لابد أن نرتكز في حلها على الكتاب والسنة لأنهما يوفران لنا التصور الصحيح عن الكون والحياة والإنسان لبناء العقيدة السليمة وإيجاد الإنسان الصالح.

وهناك – إلى جانب ذلك – بعض القضايا التي نستخدم فيها منهج الحس والتجربة والعقل في كل ما يتعلق باكتشاف العلاقات وتنظيمها، وتنظيم وسائل الاستفادة منها، ثم إخضاعها لحاكمية الله سبحانه وتعالى.

ويعرض الدكتور العلواني لمفهوم المعرفة كما هو متداول في «اليونسكو» والمؤسسات الثقافية: فالمعرفة – طبقا لما هو شائع في أدبيات تلك المؤسسات تعني «كل معلوم خضع للحس والتجربة» أما في الإسلام فهي «كل معلوم دل عليه الوحي والحس والتجربة.

بعض المعضلات الفكرية:

ويتوقف الدكتور العلواني بعقلانية نقدية محللة أمام تلك المعضلات التي كان

لها أسوأ الأثر في بناء الفرد المسلم عقليًا وثقافيًا ونفسيًا وتربويًا وأسوأ الآثار في كيان الأمة وفرقتها وجعلتها شيعًا، وأهم تلك المعضلات في رأيه:

١ـ معضلة العقل والنقل:

وهي قضية حديثة ظهرت على السطح بعد عصر التجربة، ظهرت لتشتت شمل الأمة، الصراع المفتعل بين النص والعقل، لم يكن في صدر الإسلام هذا الصراع بل كان النص والعقل يسيران معًا جنبًا إلى جنب خاضعين لحاكمية الله المطلقة، انقسمت الأمة إلى فريقين فريق تمسك بالنص ورفض العقل، وفريق قدم العقل في مواجهة النص.

٢ـ معضلة السببية:

اقتضت سنة الله في الأرض أنه لا شيء يحدث في الكون دون أسباب لذا صور القرآن الإنسان الذي يريد أن يصل إلى نتائج دون مقدمات فقال: ﴿ لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ ﴾ [الرعد:١٤] تريد أن تشرب فاذهب إلى الماء واغرف واشرب، ولا تجلس تُسَبِّح وتنتظر الماء ليأتيك حيث تجلس.. فلن يصل مهما كانت درجة تقواك.

لقد ذهب البعض إلى أن القول بوجود سبب فيه معنى الشرك، كيف؟ قالوا لأن السبب هو المؤثر، وإذا قلنا بوجود مؤثر غير الله سبحانه فقد أصبح ذلك شركًا.. فماذا تقولون؟ قالوا: نقول بإن العلة والسبب الوحيد في الكون هو الله سبحانه وتعالى. لقد أصبح الإنسان المسلم شخصية قلقة مهزوزة، مرة تعتبر السبب وتأخذ به، ومرة تلغي السبب، مرة تنتظر حصول الشيء بدون أسباب، ومرة تتوصل إلى النتيجة بأسباب غير الأسباب الموصلة إليها.

٣ـ معضلات أخرى: قضية التأويل:

وخاصة تأويل المتشابهات والنصوص وتلك المتعلقة بصفات الخالق البارئ

سبحانه وتعالى.

قضية الجبر والاختيار:

يقول الرسول ﷺ: «**اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت ولا راد لما قضيت**» لقد كان هذا الحديث يتردد على ألسنة المسلمين صباح مساء في عهد معاوية وكان هو الذي روج له وكأنه يقول إن كل ما حدث من الأمويين ضد شرعية الحكم المستقرة، إنما حدث بأمر من الله تعالى، مما دفع الحسن البصري إلى أن يكتب إلى الخليفة عبد الملك بن مروان يعاتبه فيه على إشاعة هذا النوع من الأفكار، ويقول له إنكم ترسلون شرطتكم يهينون الناس ويظلمون الناس وتقولون هذا بقدر ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:٢٨] إذن كان لهذا الأمر خلفية سياسية مما تسبب في تمزيق الأمة إلى فريقين، ولكن عند تحليل القضية تصبح أمامنا قضية أخرى بعيدة عن المأزق الذي تناقش فيه.

قضية التقليد والاجتهاد:

لقد وصف الجاحظ أمة المسلمين في القرن الثالث بقول: أمة قد أصبحت تحمل عقلية العوام ونفسية العبيد وطبيعة القطيع.. في هذا الوقت كانت الأمة تسود الأرض لكنها كانت تمر بمأزق.. حكامها يريدون أن يفعلوا ما يشاءون ويريدون أن يستعينوا بطائفة من علماء الدنيا أو علماء السوء، لقد وصل الأمر في القرن الرابع الهجري إلى أسوأ من ذلك لدرجة أن أبا الحسن الكرخي - وهو من علماء الحنفية - قال: «كل آية أو حديث يخالف ما عليه أصحابنا فاعلم أنه مؤول أو منسوخ» فأصبح الأصل هو المذهب الحنفي والفرع هو الكتاب والسنة كانت هذه قضية في غاية الخطورة.

صور من الأزمة الفكرية:

يقول الإمام الماوردي -رحمه الله وغفر له: «تجوز إمامة الجور وتمضي أحكامها» وتجوز إمامة إمام الجبر يعني المتغلب بالقوة «ويقول» وتنعقد الإمامة ببيعة اثنين

قياسًا على عقد النكاح» أي من يتزوج حرمة كمن يحكم أمة.!!

ويرى الدكتور العلواني أن هذا الفكر الذي لا يستند إلى شيء من كتاب الله تجب معالجته بدقة وبسرعة، والمطلوب دراسات تحليلية نقدية تعيد طرح هذه القضايا وسد الثغرات التي نتجت عنها.

على طريق العلاج:

وبعد هذا التشخيص الدقيق لأدواء الأمة ومعضلات الفكر الإسلامي ينتقل المؤلف بنا إلى طريق العلاج فهو يرى أن المسلمين محتاجون إلى وضع مناهج للفكر السليم، بعيدًا عن الشخصية الفكرية الغربية أو سيطرتها، ولا بد أن نحدد القضايا المشتركة، والقضايا ذات الطبيعة الخاصة، فمثلا جميع العلوم المتعلقة بالمادة وظواهرها وخصائصها قضايا مشتركة، لأن الحقائق المادية مثل الدليل التجريبي المحسوس والحياة لا تختلف والتجارب لا تختلف من الممكن أن يقوم بها هذا الإنسان أو ذاك، على الرغم من تمايز غاياتنا كمسلمين ومقاصدنا عن غايات ومقاصد الآخرين. لكن هناك أمور من خصائص أمة بذاتها فمثلا في الغرب يحدث صراع بين الحكم والمعارضة بين الكونجرس والنواب من أجل دعم قرار معين، أما بالنسبة لنا كمسلمين فالشورى عندنا هي عملية حوار وتعاون من أجل الوصول إلى الحق والصواب والأفضل.

لكن هناك قضايا أخرى أساسية خطيرة جدًا، في نظر العلواني وهي تلك التي يسميها الغرب بالعلوم الإنسانية والاجتماعية، فهذه بيت الداء، هذه العلوم الإنسانية الاجتماعية موضوعها وهدفها الإنسان، فلكل مذهب أو حضارة أو ثقافة أو دين فكرته الكلية عن الكون والحياة والإنسان، فكرته الكلية عن الإنسان وغاية وجوده وطبيعة هذا الوجود. والأخلاق التي يجب أن تسود، إننا كمسلمين حينما ندرس الهندسة، أو الطب لا نجد مشكلة في التوفيق بين الفكر الطبي أو الهندسي

وبين الوسائل، لكننا جميعًا ندرس الفلسفة الغربية التي انحرفت كثيرًا لابد أن تكون لنا شخصيتنا.

وفي هذا الصدد يقول الدكتور العلواني:

«إنني أشمئز حين أسمع أو أقرأ عن الفنون الغربية التي اعتمدت العُري، واعتبرت أن قيم الجمال كلها تتعلق بالرجل العاري والمرأة العارية، لذا نقول أنه يجب علينا أن يكون لنا فلسفتنا المحلية.

نحن نريد أن يتحول القرآن الكريم إلى مصدر ثقافة ومعرفة كما هو مصدر للحكم الشرعي، نحن نريد ولكن لدينا قضايا أخرى القرآن الكريم تناولها ووجه إليها لذا يجب علينا أن:

١- نعيد قراءة القرآن الكريم وما صح من السنة النبوية المطهرة ونقوم بعملية تصنيفها وتوزيعها على قضايا العلوم الإنسانية والاجتماعية لنكتشف توجيهاتها وأحكامها.

٢- نطلع على كل محاولاتنا الذاتية في مجالات وقضايا هذه العلوم الإنسانية والاجتماعية.

٣- ندرس التراث المعاصر، هذا الذي يسمى بالتراث الغربي الذي أسهمت فيه كل البشرية، وإذا كانوا هم قد استفادوا من كتب أسلافنا كثيرًا، فلابد لنا نحن أن ندرسها دراسة ناقدة فاحصة. وهنا يثمن المؤلف جهود المعهد العالمي للفكر الإسلامي في هذه القضية بمحاولته وضع مشاريع وتحويلها إلى أوراق عمل أما الوسائل التي يستخدمها فهي: الندوات واستفتاء العلماء والباحثين وتشجيع طلبة الدراسات العليا ونشر الأبحاث والدراسات وتبني بعض الدراسات الجادة وإعداد مشروعات علمية يشترك فيها مجموعة من الأساتذة وإيجاد نوع من (العصف) الفكري من أجل بلورة هذه القضايا.

أما المناقشة التي جاءت في ختام المحاضرة – التي هي أصل هذا الكتاب – فقد تضمنت ما عرضه الحضور من أسئلة كان قد أجاب عنها الدكتور العلواني بالفعل في سياق المحاضرة، أما عن السؤال الذي طرحه أحدهم عن أسلمة الفكر فقد نفى د./ طه أنه قال: أسلمة الفكر... لكنه عرض اصطلاح مناهج الفكر... وأنا اعتقد أن الفكر الإسلامي موجود وصالح لكل زمان ومكان.. وليس فيه انحراف أو عدم موائمة.. والسبب في الانحراف الفكري لدى المسلمين هم أنفسهم.. عندما اهتز كيانهم أمام الهجمة الأوربية الشرسة التي تيسرت لها أسباب الانتشار عن طريق:

١- ضعف المسلمين وتقهقرهم أمام الفكر الغرب.

٢- سيطرة الأعلام العميل الذي لا شك أنه مهد للغزو الثقافي الغربي.

٣- جمود العقل الإسلامي وتخلفه.

*****

obeikan.com